

روايات تغير الأحداث التاريخية وتكتشف المجهول

خيال حرّ ولون أدبي جذاب يغيب عن ساحة الإبداع العربي

دوحة التاريخ ثرية، وغاصة بثمار الحكمة. فيها قصص مُستعرة بالوَجع الإنساني، حُب وكراهية، غدر ووصل، صعود وهبوط، ونماذج مُدهشة. هي حزم جمال أخاذ يُمكن سكبها على الورق أدبا روائيا جذابا. ليس على الروائي سوى أن يمد أصابعه ليقتطف حكاية فيغسلها، ويحفظها، ويهدبها ثم يقدمها للقارئ.

مصطفى عبيد

لوجدنا أرضا خصبة لزروع شتى من الإبداع الروائي، ولو تساءلنا ووضعنا لخيالاتنا وطاقتنا الروائية أطرا جديدة من التصورات العكسية لأمكن لآلف رواية ورواية مُبهرة أن تولد. نحن أمام تساؤلات جملة يُمكن صياغتها من عينة ما الذي كان يُمكن عليه أن يكون وضع العالم العربي، لو سار اليهود في طريق تأسيس دولتهم في الكونغو بدلا من فلسطين؟ ما هو حال الدول العربية التي لم تخضع حروبا ضد إسرائيل ولم تعان صراعا طويلا معها؟ وهل هي علاقات سلام ومودة أم عدا وكراهية؟

إذا افترضنا أن ثورة 23 يوليو 1952 في مصر لم تقم، وأن واحدا من الضباط الأحرار أبلغ القيادة العامة بموعد التصريح، وتم القبض على الضباط الرئيسيين في التنظيم، وقدموا للمحاكمة العسكرية بتهمة التآمر، كيف كانت نظرة الناس لهؤلاء الضباط؟ وهل كان سينظر إليهم كباطل أم خونة؟ وما هو مصير كل قائد من قادة التنظيم؟ هل سينالون عفو الملك أم

لا؟ وإلى أي مدى كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية للبلاد ستغير؟ وإلى أي مدى سيكون لذلك تأثير على الساحة العربية والمحيط الإقليمي؟

يُمكن توسعة الفرضيات لتشمل أسئلة من أمثلة، ما الذي كان يُمكن أن يحدث إن ظلت الوحدة بين مصر وسوريا قائمة حتى اليوم؟ ما الموقف العربي إن لم يقم الرئيس العراقي صدام حسين بغزو الكويت سنة 1990، وتم إنهاء الخلاف دينا؛ ماذا كان سيحدث لو لم تقع أحداث 11 سبتمبر 2001 في أميركا؛ وماذا لو لم تقع ثورات الربيع العربي؟ وغيرها من التساؤلات التي تطرح القراءة البديلة للتاريخ

بشكل روائي قائم على الخيال. لم تغب هذه الفكرة عن كبر المبدعين في العالم شرقا وغربا، ففي الأدب العالمي نماذج عديدة لإطلاق سراح الخيال ليعبث كما شاء، ويفترض كما أراد، ويكفي أن كل طرح للتاريخ البديل يشهد إسهامات متنوعة تمثلها الكثير من الأعمال المبهرة.

من أبرز الأمثلة على ذلك تصور انتصار دول المحور بقيادة ألمانيا على الحلفاء في الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، وهو ما كان معينا لمبدعين

لغدا، فإن جانبنا من نقد النقاد المقدم لبعض الروايات قد يُركز أحيانا على عدم مطابقة نص ما لحقيقة تاريخية يتصورونها ثابتة.

ما يغيب تقريبا عن عالمنا عكس ذلك، وهو التاريخ البديل أو الأخر، بمعنى أن نهجر ما حدث إلى ما لم يحدث، أو نطرح افتراضا مستحيلا ونبنى عليه قراءة مغايرة للمجتمع والأحداث، أن ننفي حدثا حدث بالفعل، أو نثبت أمرا فشل، لنعيد صياغة حيوات البشر وما حولها من تفاعلات. بكلام آخر نحرر الخيال تماما، ونتركه يمارس صناعته التخيلية الجذرية

به، ويُشكل قصصا جديدة، ومواقف لا نعرفها، وأحداثا لا نتوقعها. لو فكرنا في التاريخ معكوسا لوجدنا كنوزا دفينية، ولو عملنا رؤوسنا في الافتراضات الخاطئة

التي نعيشها، فإن جانبنا من نقد النقاد المقدم لبعض الروايات قد يُركز أحيانا على عدم مطابقة نص ما لحقيقة تاريخية يتصورونها ثابتة.

ما يغيب تقريبا عن عالمنا عكس ذلك، وهو التاريخ البديل أو الأخر، بمعنى أن نهجر ما حدث إلى ما لم يحدث، أو نطرح افتراضا مستحيلا ونبنى عليه قراءة مغايرة للمجتمع والأحداث، أن ننفي حدثا حدث بالفعل، أو نثبت أمرا فشل، لنعيد صياغة حيوات البشر وما حولها من تفاعلات. بكلام آخر نحرر الخيال تماما، ونتركه يمارس صناعته التخيلية الجذرية

به، ويُشكل قصصا جديدة، ومواقف لا نعرفها، وأحداثا لا نتوقعها. لو فكرنا في التاريخ معكوسا لوجدنا كنوزا دفينية، ولو عملنا رؤوسنا في الافتراضات الخاطئة

التي نعيشها، فإن جانبنا من نقد النقاد المقدم لبعض الروايات قد يُركز أحيانا على عدم مطابقة نص ما لحقيقة تاريخية يتصورونها ثابتة.



ماذا لو انتصر هتلر

هناك أيضا قصة للقصص عمرو النبيل بعنوان "الحملة المصرية" في مجموعة حملت العنوان ذاته، صدرت بالقاهرة سنة 2011 عن دار الرواق للنشر. افتترضت أن مصر قامت في زمن ما بتجهيز حملة عسكرية كبرى لغزو فرنسا واحتلالها وفرض قوانينها وثقافتها وعاداتها على الفرنسيين. تتخيل القصة أن سلطات الاحتلال المصرية قامت بخصخصة برج إيفل، وإعلان حظر جماعة الإخوان الفرنسيين، واستبدلت الإدارات الفرنسية بالبيروقراطية المصرية العتيقة، وتتصور القصة أن لوحة الموناليزا تعرضت للسرقة، فضلا عن الكثير من السيناريوهات الساخرة، مثل تغيير اسم مهرجان كان السينمائي إلى "كان زمان".

ورغم سذاجة الطرح وخفته، فقد بدا نمطا مغايرا لافتراض معكوس يُمكن من خلاله نقد الواقع المصري بشكل جذاب، أو طرح تساؤلات مدهشة بشأنه.

بشكل عام أرى أن ملعبا واسعا للتجريب الروائي يفتح أبوابه أمام المبدعين العرب، ورغم بدائية الاجتهادات السابقة، وضعف بعضها الفني، فإنها تصلح كنقطة انطلاق لمحاولات تجديد أخرى تتجاوز التاريخ الحقيقي إلى التاريخ المغاير بما يُضفي قدرا من المتعة وقدرنا من الدهشة.

وإذا كان الفيلسوف الألماني فريدريش هيغل يبتني موقفا مضادا من فكرة "ماذا لو" فيقول في صرامة "لو كان شيئا من الممكن أن يحدث لكان حدث"، على المبدعين كسر كل قانون فلسفي، لأن الإبداع حرية، والحرية مطلقة.

وسعى الجيل التالي لفتح مسارات أوسع للخيال في طروحات غير واقعية ومستحيلة، وإن كانت لم تنل حقها من الاهتمام التقديري، إذ اعتبرها النقاد وقتها شطحات غير مقبولة أقرب إلى الفانتازيا، وأبرز تلك الأعمال رواية صغيرة الحجم لروائي مصري غير ناضج، هو بكر الشراقوي، وهي رواية "وقائع ما حدث في يوم القيامة بمصر" نشرها سنة 1987، ثم أعيد نشرها مرة أخرى بالقاهرة سنة 2017.

بعض الروايات العربية الحديثة والمعاصرة حاولت طرح أفكار خيالية لأحداث لم تقع في محاولة رسم واقع خيالي

تقوم فكرة الرواية على أن تمثال رمسيس الثاني القائم في أحد ميادين القاهرة يحزن لما وصلت إليه أحوال المصريين، فيتحرك من مكانه، ويذهب إلى ضريح الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ويُنَاديه ليستيقظ ويصح الأوضاع المندثرة، وبالفعل يستجيب عبدالناصر ويعود إلى الحياة، ويغادر ضريحه، ليعيد بث أفكاره من جديد عبر كتابة جزء ثان من كتابه "فلسفة الثورة"، وينتقل من مكان إلى آخر منتقدا الأحوال وداعيا الناس للتحرك لرد كبرياء مصر وإعادة الحقوق، وتجديد العدا مع دولة إسرائيل.

في الوقت ذاته يعيش في المنطقة كاتب مختلف يكتب رواية خيال علمي بتخيل فيها تاريخا مغايرا، وتجذب روايته الناس من كل مكان ومنهم قراء كثر من المحتلين اليابانيين والألمان أنفسهم، ما يدفعهم تدريجيا إلى السير في طريق النعمة على نظام الحكم، والسعي إلى الاحتجاج السياسي، والتعاون مع الأميركيين لتخليص العالم من قمع وقهر المحتلين.

مثل هذا الطرح رغم سذاجته وافتقاره ليقدم نمطا جديدا يُمكن أن يمثل إغراء لجمهور الإبداع في العالم العربي، لاتكائه على فكرة تشغيل الأدمغة، وتقويم الوقائع التاريخية بمعيار الحدث البديل. حاولت بعض الروايات العربية الحديثة والمعاصرة طرح أفكار خيالية لأحداث لم تقع في محاولة رسم واقع خيالي، لكنها جميعا انطلقت من الحاضر لقراءة المستقبل غير المعروف وليس الماضي المعكوس، ومن أوائل الإسهامات في هذا المجال قصة الكاتب المصري محمود خليل راشد التي أصدرها سنة 1915 بعنوان "مصر سنة 1950"، وهي عمل بدائي توقع فيه الكاتب انتشار المدارس الثانوية والجامعات في مصر وعمل خطوط جوية للمنطاد، ومد خطوط الترام والسكة الحديد في ربوع البلاد.

تتالت بعد ذلك قراءات المستقبل في روايات جيل الأدباء الرواد في مصر، مثل توفيق الحكيم، سلامة موسى، مصطفى محمود، ويوسف عز الدين عيسى، ثم سعد كاوي، وحسين قري، وصبري موسى، وأميمة خفاجي.

كُثر خاصة في أميركا ليُقدم كل منهم تصور. من بين تلك الإسهامات روايات مثل "الرجل في القلعة العالية" للكاتب الأميركي فيليب ك. ديك، و"الحلم الحديدي" للكاتب الأميركي نورمان سببتراد، ومن بعدها "سفينة الفضاء باتون" للروائي الأميركي جون بارنز، والقائد الفاتح" لجون روبرتس، و"خطة مدعشق" لغي سافيل.

خيال علمي

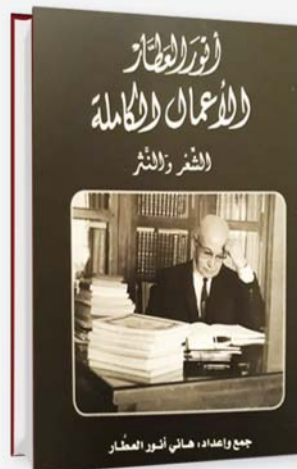
في رواية "الرجل في القلعة العالية" تدور الأحداث في الستينات من القرن الماضي، لتُحقق دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) بالولايات المتحدة وحلفائها أكبر هزيمة في التاريخ، ومن نتائجها تقسيم أميركا بين الألمان واليابانيين، إذ يسيطر الألمان على الشرق الأميركي، بينما يسيطر اليابانيون على الغرب. ويهيمن المنتصرون تماما على بلاد العم سام، وعلوهم ومراكزها البحثية، ويقومون بحملات إبادة جماعية ضد السود والزنج.

تقدم الرواية تلك الأجواء من خلال حكايات متشابكة لشخص أكثر عيشون في إحدى قرى كاليفورنيا، منهم مثلا تاجر تحف بكاليفورنيا مُكلف من أحد اليابانيين ذوي النفوذ بالحصول على مسدس من زمن الحرب الأهلية الأميركية، ويبدل كل جهد خوفا من غضب الحكام اليابانيين وحلفائهم من الألمان، والذين تصورهم الرواية كمستغلين وسارقين للإبداع والفن.

الأعمال الكاملة للقطار

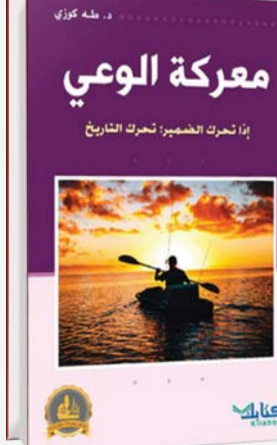
صدر أخيرا الأعمال الكاملة، للشاعر أنور العطار جمعها وأعدّها في مجلدين نجله هاني أنور العطار، وضم المجلد الأول الأعمال الشعرية الكاملة، والمجلد الثاني الأعمال النثرية الكاملة.

يعتبر الشاعر أنور سعيد أنيس العطار (1913 - 23 يوليو 1972) من أبرز شعراء سوريا في القرن العشرين. والعطار من الشعراء القلائل الذين يعتمدون نظم القصائد بأسلوب "الرباعيات"، وهي مقطوعات شعرية من أربعة أبيات، وتكشف أشعاره فلسفته في الحياة والكون، ويغلب على موضوعات شعره الاهتمام بالطبيعة. ويمكننا اعتبار العطار من الشعراء والكتاب المتأثرين بالرومنطيقية حيث وصفه إميل يعقوب قائلا إنه "وصاف مبدع، وبخاصة لجمال الطبيعة"، حيث تميز في وصف الطبيعة، وهو ما يؤكد محمود فاخوري الذي أشار إلى أنه يغلب على موضوعات شعر العطار عنابته بالأمكان.



ساحة لمعركة الوعي

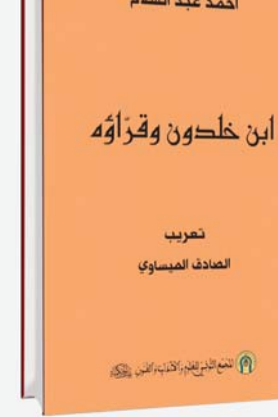
لا تملو الحياة إلا حين تصير مكابدة بين مبدأ تؤمن به، وواقع يتحاذك ويستقرزك، فكلما ازدادت الحياة حرارة وانقادا ولهيبا ازدادت جمالا، لأنها ترصف الأبيض إلى الأسود، والأحمر القاني إلى الأخضر الداكن، فيصير عمر الإنسان لوحة زيتية بهية الألوان.



إنها الحياة حين تصير ساحة "لمعركة الوعي"، ونزال "الفكر والفعل"، وهذا ما يبرزه كتاب "معركة الوعي.. إذا تحرك الضمير تحرك التاريخ" للمفكر والأكاديمي طه كوزي. الكتاب يمكننا اعتباره مرآة عاكسة لتلك الحيرة التي تخنق عالم الإنسان المعاصر اليوم، وبخاصة المسلمين العرب، الذين يعانون من أزمت متلاحقة بسبب تراجع الوعي ما يتطلب وقفة جديدة من خلال الفكر لصناعة ما يمكن الاصطلاح عليه "العقل العربي" المعاصر. ولذا فإن هذا الكتاب تعبير صادق عن معالم "معركة الوعي"، ومحاولة لرسم ساحتها.

مونتسكيو العرب

صدرت عن بيت الحكمة بتونس النسخة العربية لكتاب أحمد عبدالسلام "ابن خلدون وقراءته"، بترجمة الصادق الميساوي. يمهّد عبدالسلام لكتابه الذي صدر أولا بالفرنسية، بالإشارة إلى ابن خلدون هو المؤسس لعلم العمران البشري وأكبر المطورين للفكر السياسي من خلال إسهاماته في فلسفة التاريخ والنظم السياسية.



ويرى أن الفكر الخلدوني تطور ببروز المدرسة الخلدونية في تركيا والتي من أبرز رموزها حاجي خليفة (1774-1856) والكاتب أوغلو، فضلا عن اهتمام كتاب ومستشرقين بكتاب "المقدمة"، وتأكيدهم لتشابه ما ورد فيه مع أفكار فلاسفة عصر الأنوار مثل مونتسكيو، ولهذا أطلق على ابن خلدون اسم "مونتسكيو العرب". ويؤكد عبدالسلام أن القراءات المتعددة لأفكار ابن خلدون تتنوع بتنوع القراءات إبستمولوجيا وأيديولوجيا، ولكل قراءة منها مشروعيتها.

